الإبراهيمية في سياق البحث العقدي المعاصر

دراسة تحليلية نقدية

الأستاذ يوسف بنلمهدي جامعة قطر[1]

تمهيد:

يعنى الجدل العقدي المعاصر بدراسة القضايا والمفاهيم العقدية في سياق فكري وثقافي راهن، ويحاول الاستجابة للتحديات التي تواجهها المبادئ والمفاهيم الدينية الأصيلة، على قاعدة البيان العلمي الجامع بين صحيح النقل وصريح العقل، والتصديق الإيماني الجازم بقضايا الغيب والشهادة، ثم النقد المتحرر من التقاليد والأهواء.

ومن التحديات التي تستفز علم العقيدة والكلام في عصرنا، وتتطلب منه تقريرا مبينا ونقدا علميا وتاريخيا مقنعا، ما يتعلق بشخصية إبراهيم عليه السلام، وبالإبراهيمية المحدثة في سياق جيوسياسي وإيديولوجي مريب، حيث تطالعنا الكتابات المعاصرة بعناوين غزيرة محورها شخصية إبراهيم عليه السلام؛ من قبيل التعبير عن الشرائع السماوية بـ"الديانات الإبراهيمية"، ووسم أتباع اليهودية والمسيحية والإسلام بـ"أبناء إبراهيم"، وموازاة لذلك نحت مصطلح "بنات إبراهيم" للتعبير عن الإيديولوجية النسوية ذات الصلة بالعهدين القديم والجديد والقرآن الكريم، ثم نعت التوحيد بـ"المشترك الإبراهيمي"، واقتراح مزار سياحي متعدد الأديان تحت مسمى "مسار إبراهيم"... وغيرها من العناوين التي تسعى لحشر الملل الثلاث في سياق جديد هدفه التحويل الديني في مجال المعرفة والقيم، وتثبيت الأمر الواقع في مجال السياسة والحقوق.

1- أستاذ الأديان والحوار الحضاري، ORCID ID:0000-0001-8745-4360، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة قطر، ybanelmahdi@qu.edu.qa.

إشكالية البحث:

إذا كان الجدال القديم بين الشرائع السماوية حول شخصية وقيم ومبادئ إبراهيم عليه السلام قد سطر فصولا من الكلام حول الخليل عليه السلام فيها الاتفاق والاختلاف والنزاع، وهو أمر يمكن تلمس آثاره في تراث مقارنة الأديان في الملل الثلاث، فإن انزياحا ظهر بقوة في الألفية الثالثة، مع أن جذوره تعود لما قبل ذلك بفترة، حيث صار مفهوم "الإبراهيمية" من أكثر المفاهيم تداولا، وأعيد إنتاجه لاهوتيا وسياسيا وأكاديميا ليكون مصطلحا مسكونيا ورافعة لمشروع دولي هو ما يسمى بصفقة القرن، وتصفية القضية الفلسطينية، مع وعود بمنظومة فكرية وأخلاقية عابرة للأديان، الأمر الذي يتطلب منا التفاعل مع هذه الدعوة خاصة من منطلق الثوابت الإيمانية القاطعة والحدود المفاهيمية الواضحة. والأسئلة التي نطرحها هي:

1- كيف ظهر مفهوم الإبراهيمية؟ وما هي الوعود التي يقدمها؟
2- ما هي المقولات الإيمانية حول إبراهيم في الشرائع الكتابية؟
3- وما هي التحديات التي يطرحها مشروع الإبراهيمية عقديا وأخلاقيا؟
4- وما هي أبرز تمحلات دعوى الإبراهيمية في سياقها المعاصر؟

المبحث الأول: فكرة الإبراهيمية وتحولاتها

قبل عرض تاريخ فكرة الإبراهيمية في الأدبيات الدينية والسياسية المعاصرة، ينبغي التنويه إلى أن الذي ميز الفكرة تاريخيا هو سياقاتها المتحولة، أو قابليتها للتوظيف في سياقات دينية وسياسية متنوعة ومتناقضة، وهذا تحرز ضروري من أجل درء التعميم المخل في الحكم على الأفكار، وحتى لا يُجر أعلام لهم نصيبهم من الخطأ والصواب، إلى سياق إيديولوجي يهدد التنوع الديني والثقافي، ويمهد للأمر الواقع في الأرض المقدسة وحقوق الإنسان المظلوم في فلسطين المحتلة.

وبناء على هذا التوضيح فإن أي نقاش عن الإبراهيمية في كتابات ما قبل إعلان اتفاقية أبراهام صيف 2020م، له سياقه الخاص ووضعه التفصيلي الذي ينبغي البحث عنه والتدقيق في ملابساته ومقاصده، ونفس الأمر يصدق على أي استدعاء لعبارات شاردة من التاريخ مهما كان شأن صاحبها؛ ومن الأمثلة التي نسوقها هنا ما ورد في رسالة أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت 638 هـ)، إلى قسيس "تركونة" يطلب فيها الإفراج عن بعض قرابته؛ ومما جاء في متن الرسالة كما نقلها المؤرخ التونسي ابن الطواح (عاش في ق 8 هـ): "تواشج رحم الأبدان بدنا، والنفوس نفسا، والأرواح روحا، بما شرع لإبراهيم خليل الرحمن من الملة الجمعاء، والحنيفية البيضاء، وجعله أبا جامعا لأسباط بني يعقوب بن إسحاق، ووالد الأصفر أبي كافة الرومية وقبائل أولاد إسماعيل بن إبراهيم"[1]... وتعليقنا على هذا الكلام من وجوه:

أولها: أن كلام الحرالي هنا، فضلا عن كونه كلاما شاذا وغريبا إذا حمل على ظاهره، وفضلا عن كونه عاريا عن أي دليل، فإن له سياقا خاصا لا يتجاوزه، هو سياق التلطف المبالغ فيه، لكنه بالتأكيد لا يتضمن أي تلفيق بين الأديان، أو قول بملة إبراهيمية مستحدثة جامعة للملل الثلاث على حالتها الظاهرة، بدليل ما أورده الحرالي نفسه في تفسيره عن تمايز الأديان، وتحديده لكل دين بحدوده؛ دين الذين آمنوا، ودين الذين هادوا، ودين الذين قالوا إنا نصارى[2].

ثانيها: حتى لو كان القصد ما تحرزنا منه، فقد اتفق المتقدمون والمتأخرون[3] على أن مضمون رسالته كان سبب محنته وإجلائه من البلاد، لأنه ضمن رسالته أمران يتعلقان بالإبراهيمية، هما الرحم الإبراهيمية والملة الإبراهيمية، وإن كانت الأولى لا تحتاج أن نقف عندها لأنها خارج حدود

1- عبد الواحد ابن الطواح، سبك المقال لفك العقال، تحقيق محمد مسعود جبران، جمعية الدعوة الإسلامية، ط2، 2008، ص 99.

2- تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، تحقيق محمادي الخياطي، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1997، ص 129.

3- راجع الغبريني، عنوان الدراية، ص، 143، وتقديم محمد بن شريفة لكتاب تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، ص 5، سبك المقال ص 100-101.

البحث، فإن الثانية كانت دعوى عريضة لم ترق حتى للقسيس الذي رأى في مضمون كلام الحرالي ما يبعث على الحيرة ويخالف الشرائع، ووجه رسالة للأمير أبي زكريا بن حفص (ت 674 ه) يستفسر عن الموضوع. فكتب الأمير إلى نجله أبي يحيى ببجاية أن "خيّره في المشرق أو المغرب، فإن اختار المغرب على المشرق فاقض عليه، وإن اختار المشرق فخل سبيله. فخيّره، فاختار المشرق"[1].

ثالثها: أن الحرالي نفسه لم يجد فيما ذكره أثرا على التقارب والحوار وإنما العكس، يقول: "فلم يزد الأمر بتأكيد أسباب الألفة إلا افتراقا، ولا جعل منهم بتوثيق الرحم والملة الإبراهيمية إلا شدة الشتات شقاقا ونفاقا"[2].

ومع هذا فإننا لا نستبعد أن تكون جذور فكرة الإبراهيمية كما ستتطور مع ماسينيون صوفية؛ خاصة إذا علمنا اهتمام ماسينيون الكبير بالتصوف الإسلامي وبتراث ابن العربي الحاتمي تحديدا.

1. مع ماسينيون في صلوات إبراهيم الثلاثة.

يمكن العثور على نقاشات سابقة لماسينيون حول إبراهيم والعهد الإبراهيمي، خاصة النقاشات المسيحية اليهودية التي جرت على أرضية العهد القديم، لكن الدفع من أجل أن يكون إبراهيم عليه السلام مرجعا لحوار ديني بين الملل الثلاث، وترسيخ قبول الإسلام باعتباره "ديانة إبراهيمية" في الأوساط الكاثوليكية، يرجع في الحقيقة إلى التجربة الشخصية للمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (1883–1962م) الذي اعتنق تصورا خاصا لفكرة "الإبراهيمية" في ثلاث سياقات متباينة تماما:

1- سبك المقال لفك العقال، ص 100-101.

2- المصدر نفسه، ص 99.

سياق مبكر يمكن تسميته بـ"الصهيونية الكاثوليكية" بسبب دعمه للصهيونية والتماهي مع مشروعها الدعائي والإحلالي[1]، فقد كان للشاب الكاثوليكي ماسينيون في الفترة ما بين (1916-1927م) نشاط سياسي وأكاديمي شديد الحماسة والولاء للحركة الصهيونية، بخلاف جمهور المثقفين الفرنسيين، وجمهور الكاثوليك كذلك، لهذا نجد الإبراهيمية المبكرة عند ماسينيون هي إبراهيمية العهد القديم التي لم تتجاوز كونها وعاء لاهوتيا معبأ بتأويلات الصهيونية المعاصرة، التي ترى أن العودة لفلسطين لا ينبغي أن تنتظر عودة المسيح لقيادتها، وإنما ينبغي أن يتحمل اليهود مسؤوليتها، وبهذه العقيدة انخرط ماسينيون فعليا في دعم الصهيونية الحديثة التي يعود تاريخ تشكلها إلى ما بين 1860 و1890م[2].

ومنذ وعد بلفور 1917م أظهر ماسينيون حماسا مسيحيا للصهيونية، واهتماما بالوطن القومي لليهود، ووطد اتصالاته وعلاقاته مع زعماء الحركة الصهيونية مثل حاييم وايزمان (1874 - 1952م) وآرون آرونسون (1876-1919م)، الذين أقنعوه بالدعاية الصهيونية، كما عبر عن ولائه سياسيا من خلال المشاركة في اتفاقية فيصل-وايزمان (يناير1919م) التي نصت، وفقًا لوعد بلفور، على إنشاء وطن قومي لليهود داخل فلسطين[3].

ومن الناحية الأكاديمية كانت له كتابات ورسائل روج من خلالها الأفكار الصهيونية داخل الأوساط الكاثوليكية، وتحول إلى مبشر بمثالية الحركة الصهيونية. ولم يقف عند هذا الحد، بل انخرط في تبرير بعض جوانبها المظلمة، مثل رسالته إلى جمعية علم الاجتماع في باريس سنة

1- Mayeres, Agathe. "Massignon face au sionisme." Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem ,20 .(2009) https://journals.openedition.org/bcrfj/6248

2- Daniel E. Campbell, David M. Scienceman, Elliott T. Campbell The United States of Abraham: A Path toward Peace in the Middle East

3- Massignon face au sionisme, ibid.

1921م بعنوان "الصهيونية والإسلام" والتي برر فيها سلوكات اليهود العدوانية، ودافع عن ما كان يسمى حينها "الحق الطبيعي والتاريخي لليهود"، كما كانت له جهود في التنسيق بين الصهيونية والكاثوليك من أصول يهودية، أو اليهود المعمدين بتعبير الكنيسة، لخدمة مشروع إقامة الدولة القومية لليهود في فلسطين.

لكن وفي الفترة بين عامي 1936 و1948م، سيكتشف ماسينيون حقيقة الحركة الصهيونية، دينيا وإيديولوجيا، حيث لاحظ غلبة الإلحاد على قادتها، وهيمنة الأشكناز الغرباء عن فلسطين على قياداتها، وأدرك بشاعة الجرائم التي ارتكبوها في حق الفلسطينيين، إضافة إلى أسباب كاثوليكية أهمها اهتمامه بطهارة مريم أو ما يسمى عقيدة "الحبل بلا دنس" وعجزه عن تحقيقها بشعار الإبراهيمية، ليتحول إلى العداء الشديد للصهيونية والتنديد بجرائمها[1].

وفي هذا السياق طرح ماسينيون مفاهيم دينية حوارية أبرزها مفهوم "الضيافة الإبراهيمية"، الذي يمكن عده مشروعا كاثوليكيا غربيا للتعايش مع الإسلام وتطوير رؤية منفتحة نحوه باعتباره ديانة إبراهيمية، بعدما كانت الكنيسة تنظر إليه على أنه "وثنية" أو "هرطقة" مسيحية. ثم مفهوم "إله إبراهيم" (خر 3: 15)، الذي يعبر عن تأمل مسيحي منفتح لقضية الوحدانية في الإسلام، ومحاولة استيعاب الاختلافات الإسلامية الكاثوليكية حوله، وهي الفترة التي اقترب فيها ماسينيون كثيرا من أصول الإسلام وتراثه، وحاول فيه قراءة المفاهيم والقصص المشتركة بين المسيحية والإسلام بتعمق يحاول تجاوز الرواسب التاريخية، وينتصر لبعض الحقائق القرآنية، وعلى رأسها اعتبار القرآن لإبراهيم أول المسلمين، وهي الحقيقة التي دافع عنها وتمثلها في حياته، حتى أنه عندما كان يسأل هل أنت مسلم كان يجيب قائلا: "أنا أؤمن بإله إبراهيم".

بعد هذه المرحلة، وانطلاقا من 1950م، سيتحول ماسينيون من مجرد كاتب تقارير للكرسي الفاتيكاني حول الشرق، إلى التماهي مع التوجهات الرسمية للعقيدة الكاثوليكية عقديا

1- ibid.

وأكاديميا، إلى درجة أنه صار مستشارها الأول في قضايا التبشير الأممي، وبصفة خاصة في المنطقة العربية؛ بمصر وشمال إفريقيا. لكنه لم يهمل فكرة الإبراهيمية التي كانت عقيدة شخصية في ذهنه، بل طورها من خلال تركيز البحث على حضور إبراهيم عليه السلام في عقيدة المسلمين والمسيحيين واليهود، واكتشاف التكريم الكبير الذي يحظى به، ومن تم اقترح إمكانية توظيف رمزية إبراهيم كقيمة مشتركة بين الأديان، في سياق التقارب والحوار، ونقد الرؤية المسيحية التقليدية للإسلام، والرفع من قيمة المشتركات بين المسيحية والإسلام بالدرجة الأولى، لكن بالاستناد إلى أنموذج "الضيافة الإبراهيمية" وأنموذج "أصحاب الكهف"، وليس في سياق الملة الإبراهيمية التي ربما لم تخطر لماسينيون على بال؛ فهذا الرجل الذي عاش النصف الثاني من حياته وفيا لإيمانه الكاثوليكي، لم يكن ليتجاوزه إلى غيره مهما كان حجم تقديره للملل التي درسها، بدليل أنه لم يخض هذا النقاش بالوضوح التام بل خاضه بنوع من الاحتياط البالغ، وربما بنوع من السرية والتمويه...، حتى إنه لم يعمد إلى التوزيع التجاري لرسائله، لأن أفكاره في الموضوع لطالما اعتبرت هرطقة، والإعلان عنه كان فيما كتبه عن صلوات إبراهيم الثلاثة، التي تعد بمثابة الوصية الروحية لماسينيون كما ذكر الأب ميشيل حايك في مقدمة النشرة الصادرة في ديسمبر 1997م، مع أن صورة غير مكتملة عن الإبراهيمية وجدت في رسالة "رحلة إسماعيل" سنة 1935م، وفي كتاب Dieu Vivant الصادر سنة 1945م.

وعبارة الصلوات الثلاثة لإبراهيم مأخوذة من سياق توراتي، ويقصد بها دعاء إبراهيم لابنه إسماعيل في بئر السبع كما يحكي سفر التكوين، (تك 17: 20). وتشفّعه للأبرار من أصحاب لوط عليه السلام ونجاة لوط عليه السلام" (تك 18: 23-32). ثم تضحية إسحاق (تك 22: 16-18). فعلى هذه الخلفية التوراتية صاغ ماسينيون مشروعه الذي ضم ثلاث رسائل، هي "هجرة إسماعيل" التي لم يحرص ماسينيون على إشهارها، ونشر منها حوالي 300 نسخة فقط في

1935م. ثم الصلاة على سدوم 1945م، ثم "صلاة إسحاق" التي لم يكملها[1] بسبب موقفه الجديد من الصهيونية.

ويمكن أن نستخلص من جميع ما ذكر حكما مفاده: إن فكرة الإبراهيمية لم تكتمل فصولها مع ماسينيون، لأنها بقيت عرضة للتنقيح والرقابة الذاتية، كما أن فصلها الأول المتعلق باليهودية بقي دون إكمال، لكنه استطاع تثبيت رمزية إبراهيم في الحوار بين الأديان الكتابية، خاصة بين المسيحية والإسلام، وأورثها بعض تلاميذه وعلى رأسهم الأب ميشيل حايك (1928-2005م)[2]. كما وجدت الفكرة صداها بقوة في أهم قرارات مجمع الفاتيكان الثاني.

2. مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965):

انعقد مجمع الفاتيكان الثاني بين 1962 و1965م، من أجل الحفاظ على العقيدة المسيحية وتقديمها بصورة أكثر فاعلية، خاصة بعد تعاقب التحديات التي عصفت بكيان الكنيسة في القرنين الماضيين، ومن أبرزها: التنوير، ومعايير الحداثة العقلية والأخلاقية، وغيرها من القضايا التي بدأت مع المجمع الأول (1869-1870م)، واستمرت في صور متجددة مع المجمع الثاني من خلال الماركسية والوجودية... ومن ثم كانت الكنيسة في حاجة إلى تحسين وضعها من خلال الحسم في أمور عقدية ولوترجية، أبرزها تطوير رؤيتها للآخر المشمول بالكرازة، أخذا بعين الاعتبار القاعدة التي تقول إن: كل غير المسيحيين مأمورون بالدخول في الكنيسة، وجميع المسيحيين مأمورون بالتبشير. "اكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها" (مر 16، 15). فكانت الدعوى

1- MONNOT, Guy. P. Rocalve. Louis Massignon et l'Islam. Place et rôle de l'islamologie dans la vie et l'oeuvre de Louis Massignon. Revue de l'histoire des religions, 1995, 212.2: 228-229.

2- Rita Faraj, father michel hayek and studies of islam: In Search of Ishmael's Secret, Ökumenisches Forum, Jahrgang (2020), Universitätsbibliothek Graz, 2020, p:114.

إلى مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965م) الذي بدأ مع البابا يوحنا الثالث والعشرين (1958-1963م) وختم أعماله مع البابا بولس السادس (1963-1978م).

وصدر عن المجمع أربعة دساتير، وتسعة مراسم وقرارات، وثلاث بيانات تخص أسلوب المسيحية في التعاطي مع الآخر، أهمها دستور عقائدي في الكنيسة (نور الأمم Lumen gentium)، وبيان في علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية (في عصرنا Nostra aetate). والقارئ لهذه البيانات يفاجئ بنحت مصطلح مسكوني هو "الديانات الإبراهيمية" ويجد فكرة "الإيمان الإبراهيمي" التي تحدث عنها ماسينيون حاضرة، مما يدل على تأثير ماسينيون على رؤية الكنيسة الكاثوليكية للآخر، فقد كان مستشارها الأبرز. كما يدل على تطور فكرة الإبراهيمية داخل أروقة الفاتيكان دون أن تعدم معارضين لها.

بخصوص وثيقة "نور الأمم" Gentium Lumen التي نشرت في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1964م، تعد دستورا عقديا للكنيسة، وتضمنت الفقرة 16 ما يأتي: "أما الذين لم يقبلوا الإنجيل بعد، فإنهم متجهون نحو شعب الله بطرق شتى... ولكن تصميم الخلاص إنما يشمل الذين يعترفون بالخالق، ومن بينهم أولاً المسلمون الذين يقرون أن لهم إيمان ابراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي سيدين البشر في اليوم الأخير"[1].

سياق عبارة "إيمان إبراهيم" ومعناها في هذا النص لم يكن معهودا في لغة الفاتيكان ودساتيره العقدية، لهذا يعد تحولا تاريخيا كبيرا، مع أن الإبراهيمية هنا تنفتح على المسلمين باعتبارهم أصحاب عقيدة توحيدية دون أي انفتاح على القرآن الكريم ولا على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لذلك يمكن القول أن ماسينيون كان أكثر تطورا في فكرة الإبراهيمية من هذا الدستور الذي صدر بعد وفاته بسنتين.

1 -https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_const_19641121_lumen-gentium_ar.html

أما بخصوص الوثيقة الثانية الصادرة في 28 أكتوبر 1965م، وهي البيان المجمعي الثاني الذي تناول علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، ونشر بعنوان في عصرنا Nostra aetate، فقد وسع فكرة الإبراهيمية في التعاطي مع المسلمين واليهود معا، ومما جاء فيه: "وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد، الحي القيوم، الرحيم، الضابط الكل، خالق السماء والأرض، المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي..." [1]، وبخصوص اليهود تنص الوثيقة على: "إن هذا المجمع المقدس، إذ يتقصى سر الكنيسة يذكر الرابط الذي يربط روحياً شعب العهد الجديد بذرية إبراهيم. وتقر كنيسة المسيح بأن بواكير إيمانها واختبارها توجد لدى الآباء ولدى موسى والأنبياء وفقاً لسر الله الخلاصي. وإنها تعترف بأن كل المؤمنين بالمسيح، أبناء إبراهيم حسب الإيمان"[2].

نلاحظ أن الفاتيكان بصم على جزء من رؤية ماسينيون للعلاقة بين الأديان من خلال الاشتراك في إبراهيم عليه السلام، لكنه كذلك حافظ على تمركزه حول الكاثوليكية باعتبارها الوريث الروحي لإبراهيم عليه السلام، وهي العقيدة التي صاغها بولس في حديثه عن "أبناء إبراهيم حسب الإيمان" (غلاطية 3: 7). وفي الوقت الذي قبلت فيه اليهود داخل جسم الكنيسة باعتبارهم "ذرية إبراهيم" وأصحاب العهد القديم، وصفت المسلمين بأنهم يسندون إيمانهم بطيبة خاطر إلى إبراهيم. وبالتالي يمكن القول: إن إبراهيم في تصور المجمع الفاتيكاني مشترك بين الملل من غير مساواة.

3. من الفاتيكان إلى أمريكا، مشروع الحوار الإبراهيمي:

1- https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_ar.html

2- https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_ar.html

إلى حدود الربع الأخير من القرن العشرين كانت شخصية موسى عليه السلام من أكثر شخصيات العهد القديم استدعاء في الخطاب الديني والاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن آثار مجمع الفاتيكان الثاني ستصل للولايات المتحدة بعدها، وتلقي بظلالها على جملة من المؤلفات والمشاريع الأكاديمية، التي استفادت من البعد الرمزي لشخصية إبراهيم في تأطير الحوار بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

ويمكن أن نعد القس جوزيف بنيامين جريميليون، Joseph Gremillion (1919-1994م) المدير السابق للجنة العدل والسلام بالفاتيكان، من أبرز الذين رسخوا هذا التأثير من خلال عمله كأحد مؤسسي ومنسق المؤتمر المسيحي اليهودي الإسلامي (MJCC) (1975 - 1981م)، حيث كان أول المبادرين إلى جمع العلماء اليهود والمسيحيين والمسلمين للتواصل مع بعضهم بعضا حول مسائل الدين، بهدف التقارب والتفاهم المتبادل بين الديانات الإبراهيمية الثلاثة[1]، قبل أن تصغي الأكاديمية الأمريكية للدين (AAR) إلى صوت لجنة الدراسات الإسلامية التابعة لها، والتي طرحت رؤية تتمثل في الجمع بين أعضاء المجتمعات الأكاديمية اليهودية والمسيحية والمسلمة في الولايات المتحدة للحوار حول موضوع معتقداتهم، وهي الندوة التي نظمت بدعم من (MJCC) وتولى تنسيق أعمالها المفكر الفلسطيني إسماعيل راجي الفاروقي، واختار لها عنوانا: " الحوار الثلاثي بين الديانات الإبراهيمية" Trialogue of the Abrahamic Faiths، وانصبت أعمالها على مناقشة إسلامية مسيحية يهودية لمواضيع ثلاث تم الاتفاق عليها وهي "الديانات الأخرى"، و"الدولة القومية كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعي"، و"المجتمع الديني كفاعل عابر للحدود الوطنية من أجل العدالة والتنمية"[2]. والذي يهمنا من هذا النقاش الذي طبعت أعماله سنة 1982م، هو الإشارات الكثيرة إلى إبراهيم عليه

1- AL-FARUQI, Ismail Raji. Trialogue of the Abrahamic faiths. International Institute of Islamic Thought (IIIT), 1995.(Foreword)

2- Ibid.

السلام في سياق ديني وتاريخي، من قبيل الأديان الإبراهيمية، والتوحيد الإبراهيمي، وإيمان إبراهيم، والإيمان الإبراهيمي، وإله إبراهيم، وأبناء إبراهيم....

بعد محاولة الفاروقي الفارقة في الموضوع، ستظهر كتب في الموضوع منها كتاب صلة إبراهيم: حوار يهودي ومسيحي ومسلم الصادر سنة 1994م، وهو عبارة عن لقاء حواري حول أهمية إبراهيم وباقي الشخصيات المرجعية في الأديان، عقدت حلقاته بين الدكاترة "ديفيد جورديس" و"جورج جروس" و"مزمل صديقي"، واحتضنته أكاديمية الدراسات اليهودية والمسيحية والإسلامية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس.

ثم كارل جوزيف كوشيل في كتاب "إبراهيم: علامة الأمل لليهود والمسيحيين والمسلمين" الصادر سنة 1995م، والذي قدم فيه سردا تاريخيا ودينيا لمكانة إبراهيم في كل من الأديان الثلاثة، فضلا عن توظيفه لمفهوم "مسكونية إبراهيم" الذي ظهر بدلالة عامة في برلمان أديان العالم عام 1993 في شيكاغو...[1]

1- See: Kuschel, Karl-Josef. "Abraham: sign of hope for Jews, Christians, and Muslims ". .(1995)

Kuschel, Karl-Josef. Towards an Abrahamic ecumene of Jews, Christians, and Muslims: interfaith dialogue in the age of globalization. Ergon-Verlag, 2002 .

4. مشاريع الإبراهيمية في سياق جديد

بقي الأمر في حدوده الأكاديمية، وفي إطار النقاش النخبوي حتى جاءت أحداث الحادي عشر من شتنبر 2001م التي دفعت مجموعة من الناشطين الدينيين والأكاديميين والإعلاميين إلى تظهير شخصية إبراهيم عليه السلام في مشاريع اجتماعية، وتوظيف رمزيتها باعتبارها أصلا "بطريركيا" للأديان الثلاثة، ومرجعية للحوار بين الأديان المتجاورة في أمريكا، وهي الإسلام والمسيحية واليهودية، وغالبا ما يتم إنجاز تلك المبادرات تحت عنوان الحوار الإبراهيمي "Abrahamic dialogue". الذي لا تظهر عناوينه الكبرى تأثره بتجربة الفاتيكان، لكن تفاصيله تفصح عن ذلك بلا أدنى مواربة[1].

في هذا السياق ظهرت مشاريع ومبادرات حوارية، لتعزيز الوئام والتعايش بين الأديان في الولايات المتحدة الأمريكية، والعمل لتجاوز حالة التوتر وانعدام الثقة بين الأديان الناتجة عن أحداث سبتمبر المؤسفة، وذلك من خلال أنشطة متعددة الأديان، مثل الرحلات، والمناقشات التلفزية، والحوارات حول مواضيع مشتركة في النوادي والبيوت والمدارس...

نذكر على سبيل المثال مجموعة " تحالف الإيمان في مترو أتلانتا" (FAMA)[2] التي طورت مبادرة لتجاوز الآثار السلبية لأحداث 11/9، بقيادة الإمام "بليمون الأمين"، والقس "جوانا آدامز"، والحاخام "ألفين شوجرمان". وتوجت بتأسيس منظمة متعددة الأديان هي "الجمعية الإقليمية في حدائق كالواي" سنة 2002م. ومهمة هذه المجموعة كما

1- راجع على سبيل المثال: الخليل إبراهيم، ص 210 -211.

2- مجموعة دينية تعنى بالحوار بين الأديان، غيرت اسمها سنة 2021م إلى "أتلانتا بين الأديان" Interfaith Atlanta

هو مبين في موقعها "تعزيز التفاهم والاحترام، والصلاة والتفاعل والوحدة بين الأديان المتنوعة في منطقة أتلانتا الكبرى، وتعزيز تأثير أصوات المجتمعات الدينية من أجل الصالح العام. ومنهج العمل الذي اختارته يعتمد على تنظيم جلسات متعددة الأديان، وتعزيز القيم الأخلاقية المشتركة، والصلوات الجماعية، وتعليم طقوس الأديان المختلفة...[1]

ثم "قمة إبراهيم" في أكتوبر 2002م التي عقدها الحاخام "بروس لوستيغ" Bruce Lustig من مجمع واشنطن العبري في مقاطعة كولومبيا، وهو من أكثر الحاخامات حماسا للإبراهيمية، لهذا تم ضمه للجنة العليا للأخوة الإنسانية في سبتمبر 2019م. ليكون من بين ثمانية أشخاص أسند إليهم أمر تحقيق الأهداف المنصوص عليها في وثيقة الأخوة الإنسانية.

ومن المبادرات الحوارية الشهيرة "صالونات إبراهيم"، وهي مجموعات نقاش شعبية، غير رسمية، تعقد في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتحتضنها بيوت الأشخاص المشاركين الذين يؤمنون بأن الأديان المتنوعة يمكنها في الواقع أن تتفق. وفي تلك الاجتماعات يستخدم المشاركون الكتاب المقدس بعهديه والقرآن الكريم لاكتشاف شخصية إبراهيم، والعمل على التواصل وبناء الثقة بين الجماعات الدينية المختلفة المنتسبة له.

وفكرة هذا المشروع تعود للكاتب والإعلامي الأمريكي "بروس فايلر" Bruce Feiler الذي أطلقها في 8 نوفمبر 2002م بمعية ناشر كتابه ويليام مورو، وذلك عقب نجاح كتاب "إبراهيم، رحلة إلى قلب الديانات الثلاث"، الصادر سنة 2002م، وهو الكتاب الذي "اكتشف" فيه بروس أن جذور الأديان الثلاثة ترجع لـ"بطريرك" مشترك

1- https://interfaithatlanta.org

هو إبراهيم، الأمر الذي يمكن أن يشكل - حسب رأيه - مصدرا محتملا لإيجاد أرضية مشتركة وتفاهم بين المعتدلين في جميع الأديان، من خلال تجربة أشكال جديدة مما يسميه بعضهم "الحوار الإبراهيمي" وبالفعل انتشرت صالونات إبراهيم بشكل متزايد في الولايات الأمريكية، وبعضها حظي برعاية رسمية، مثل صالونات إبراهيم التي يرعاها مجلس الأديان في مقاطعة فيرفيلد...[1]

ومن الممارسات المغامرة التي قدمت فيها ورصدت إعلاميا: لبس إمام مسلم للكيبا (الطاقية اليهودية) في حفل تأبين الصحفي دانيال بيرل، الذي قتل في باكستان في فبراير 2002م، وهو تفاعل عاطفي ورد في سياق تضامني لكن لا يمكن قبوله بمنطق الإسلام، الذي يعد لبس ما هو من خصوصيات الأديان قرينة على مفارقته، ومنها إشارة الدكتور أحمد أكبر أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية إلى الصلوات الخمس، التي يبارك فيها المسلمون إبراهيم ونسل إبراهيم، بما في ذلك اليهود، وذلك بمناسبة حديثه عن إمكانية الحوار الإبراهيمي لتعزيز التعايش الذي دعت له رابطة مكافحة التشهير Anti-Defamation League (ADL)...[2] وهذا أيضا تأويل بعيد وتمحل لا يدعمه التصور التاريخي والعقدي الإسلامي، كما أنه لا يسهم في حل المشاكل الضاربة في جذور التاريخ واللاهوت والسياسة.

5. الإبراهيمية ومشاريع التسوية السياسية:

1- https://www.brucefeiler.com/books-articles/where-god-was-born/interview /Jewish Interfaith Endeavors: Abrahamic Dialogue (2004).https://hwpi.harvard.edu/

2- راجع بعض التفاصيل في:

Abrahamic faiths crack the door to deeper dialogue, By Jane Lampman June 19, 2003. https://www.csmonitor.com/

في المؤتمر السنوي الثامن للجمعية الدولية لعلم النفس السياسي (ISPP) الذي عقد في واشنطن يونيو 1985م، قدم الباحث الأسترالي "ديفيد سينسمان" David M. Scienceman رؤية للصراع العربي الإسرائيلي بحضور 20 باحثا، وكان من أهم محاور ورقته التي عنوانها "الأمل واليأس في الصراع العربي الإسرائيلي" فكرة استلهمها من تاريخ أمريكا وأوروبا، وقدم مشروعا لوحدة بين شمال إفريقيا والشرق الأوسط مع إسرائيل بعنوان "الولايات المتحدة الإبراهيمية"، ورغم أن تقريرا حول ما جرى في المؤتمر يشير إلى عدم التفاعل الإيجابي مع فكرته، إلا أن الفكرة ليست بعيدة عن ما تضمنته وما تعد به اتفاقية أبراهام في الشقين السياسي والثقافي الذي يهمنا أكثر بسبب غياب تفاصيله إلى حد الساعة. وهو ما يوضحه تقرير صادر في يناير 2015م بعنوان الولايات المتحدة الإبراهيمية: طريق نحو السلام في الشرق الأوسط؟ ويحمل توقيع ثلاثة باحثين منهم "ديفيد سينسمان"، حيث تم توضيح فكرة "الولايات المتحدة الإبراهيمية" أكثر، من خلال الحديث عن المجتمع الواحد الذي يجمع بين العرب والإسرائيليين في اتحاد إقليمي يضم 18 دولة من الشرق الإسلامي وشمال إفريقيا، تحت مسمى "أبناء أبراهام"؛ اتحاد تدار فيه المشاكل والمصالح في برلمان يسمى أيضا "برلمان أبراهام"، والحجج التي يقدمها التقرير تتمحور حول الوعي بالإنسانية المشتركة، وتطوير القيم المشتركة بين الكيانات المتنافسة، وتقدير المصالح المشتركة[1] ...

ودائما في سياق البحث عن مداخل للتسوية السياسية في الشرق الأوسط، حصلت جامعة هارفارد سنة 2000م على منحة برنامج أبحاث دراسات الحرب

1- Daniel E. Campbell, David M. Scienceman, Elliott T. Campbell The United States of Abraham: A Path toward Peace in the Middle East .Emergy Synthesis 8, Proceedings of the 8th Biennial Emergy Conference (2015)

والسلام في الإدارة الأمريكية لاختبار فرضية وضع نبي الله إبراهيم عليه السلام أساسا لدين جديد في الشرق الوسط، ولتسوية الصراع العربي الإسرائيلي (الدول العربية كافة وتركيا وإيران وإسرائيل). والنتيجة التي توصل إليها الباحثون أن سكان الشرق الأوسط سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين يحملون تقديرا كبيرا لنبي الله إبراهيم عليه السلام.

تتويجا لهذا المسار الثقافي والسياسي، تم في 15 سبتمبر 2020م الإعلان عن الاتفاقية التي لم تحمل اسم المنتجع الذي وقعت فيه كما جرت العادة في التسويات السابقة مثل كامبد ديفيد 1979م، وأوسلو 1993م ووادي عربية 1994م، بل حملت اسم أبراهام... والتفسير الذي قدم من قبل رعاة الاتفاقية وتحديدا سفير الولايات المتحدة الأمريكية، أن سر الاسم هو التيمن "بأبي الديانات الكبرى إبراهيم، وبأنه لا يوجد شخص يرمز أكثر للوحدة بين الديانات مثل إبراهيم".

والغاية المعلنة من قبل الرعاة هي جمع القادة الدينيين والسياسيين حول أفكار ينظر إليها على أنها تراث مشترك بين الأديان الثلاثة، ترقى إلى مرتبة الوحدة الدينية، ومن شأن دعم ذلك فكريا وسياسيا واقتصاديا وأمنيا، أن يحقق السلام، والأمن، والازدهار، ويقلل من تداعيات نهاية التاريخ وصراع الحضارات، ويسهل توقيع صفقة القرن التي ينظر إليها على أنها حل أمثل للقضية الفلسطينية، اعتمادا على الدبلوماسية الروحية.

وأهم الحجج التي تم التصريح بها هي:

إن شخصية إبراهيم مشتركة بين الأديان، ومدخل لتوسيع المشترك الديني واستثماره في تحقيق الأخوة الإنسانية والسلام العالمي، خاصة في الشرق الأوسط، حيث توجد

قضية عالقة ومستعصية على الحسم، وهي وجود شعب ساميّ مسلم سلبت منه أرضه، ويأبى أن يتنازل عنها، فيتم تذكيره بأن له جدا، أو أبا، أو فكرة، أو قيمة مشتركة مع السارق، مما يحول العلاقة من علاقة ظالم ومظلوم، وحق وباطل... إلى شراكة من أجل السلام؛ يكون فيها السارق مسيطرا ثقافيا وسياسيا وجغرافيا، والمسروق مضطهدا بشتى أنواع الاضطهاد.

إبراهيم كان رجلاً وضع ثقته في الله، كذلك يجب أن يثق أتباع "الديانات الإبراهيمية" الثلاثة في بعضهم بما يكفي ليكونوا قادرين على الانخراط في حوار محترم. والتعليق على هذا الوعد يكون من خلال التأكيد على أن جو الثقة لا تبنيه الاتفاقيات والوعود، بل تبنيه السلوكات والقرارات على الأرض، تلك القرارات التي لا نرى لها أفقا منصفا في ظل هيمنة الصهيونية الدينية، التي تلتزم في رؤيتها للآخر بوصايا التلمود وتفسيرات الحاخامات المتشددين، وما يصاحب ذلك من دعم إنجيلي ويميني.

تطلب الإبراهيمية من أتباع الملل الثلاثة الاعتراف ببعضهم، من خلال هويتهم المتبادلة، على أنهم ينتمون إلى الأسرة الإبراهيمية. وتحليل هذه الفكرة يتطلب منا تحريرا لحقيقة إبراهيم في الملل اليهودية والمسيحية والإسلام، وهذا ما سنقوم به في المبحث القادم. كما تتطلب الإبراهيمية تعاون القادة الدينين والسياسيين والمفكرين في صياغة الميثاق الإبراهيمي المشترك الذي يعبر عن المشترك الديني والمقدسات الجديدة، لكن الواقع يعاكس هذا التصور، وحدود الملل تأبى هذا التلفيق الفج، لهذا جوبهت فكرة الديانة الإبراهيمية بالرفض القاطع، من قبل الذين تحمسوا لها ابتداء، وهم مشيخة الأزهر وبابوية الأقباط الأرثوذوكس.

المبحث الثاني: إبراهيم بين الملل: العهد والأرض

1. إبراهيم في اليهودية، تأسيس عقيدة العهد:

تشغل قصة إبراهيم عليه السلام حيزا مهما من سفر التكوين، أول وأقدس أسفار الكتاب المقدس العبري المعروف اختصارا بـ "تنخ" أي: التوراة والأنبياء والكتب، وتحديدا تشغل من الفقرة 29 من الإصحاح 11 إلى الإصحاح 25، كما تكررت الإشارة إلى شخصه في أسفار أخرى من الكتاب المقدس، فضلا عن المداريش[1]، ونصوص المشنا[2] وشروحها، وغيرها من النصوص المعتمدة في الفكر الديني اليهودي على مر العصور.

كل ذلك وغيره من القصص والأشعار والرسوم الدينية، يؤكد محورية شخصية إبراهيم في العهد القديم، وفي الحياة الدينية لليهودية بجميع فرقها، فمنزلته في اليهودية تقع مباشرة بعد النبي موسى عليهما السلام، لكن مع ذلك، فإن ما تفيدنا به التوراة حول شخصية إبراهيم، لا يعد كافيا لتقديم صورة متكاملة عن نبي أممي، وصاحب دعوة توحيدية بتفاصيلها العقدية والتشريعية والأخلاقية؛ حيث يغلب السرد القصصي لفترات متأخرة من حياته على القيم الدينية العليا؛ حتى إن خفاء قسم كبير من سيرته وإعداده للنبوة والرسالة، لا يضاهيه في الكتاب المقدس سوى خفاء المبادئ العقدية والأخلاقية التي دعا إليها؛ فالعرض التوراتي لسيرة إبراهيم، من الزواج إلى الوفاة، لا يتجاوز نسقية العهد القديم في حديثه عن الفترة التاريخية التي تسمى

1- مداريش ج مدراش: وهي التعليقات التفسيرية على الكتاب المقدس (تنخ)، منها التشريعي "هلاخاه" الذي يشمل الأحكام والأعراف والعادات، وغير التشريعي "هجداه" ويشمل القصص والمواعظ والأساطير والأخلاق والتاريخ والطب والفلك والتنجيم والسحر والتأملات الباطنية..

2- أصلها من فعل شِـنَّه، بمعنى التثنية والتكرار، التعلم بالتكرار. أي الثانية بعد التوراة. فالتوراة هي الشريعة المكتوبة والمشناه هي الشريعة الشفهية. مضمونها: مجموع الأقوال المروية عن الحاخامات القدامى في تفسير التناخ، مشتملا على قواعد وأحكام عملية، وقصص، ومواعظ، وعقائد. جمعها يهودا هناسي. (عاش بين 135 و217 م). لغتها الرئيسة هي العبرية وبعض الأجزاء كتبت بالآرامية. وتفسيرها هو الذي يسمى جمارا.

اصطلاحا بفترة الآباء، حيث تُحشر الشخصيات الدينية في نسقية بدوية مادية لا تنفك عن السعي للحصول على متاع الدنيا؛ من الأراضي الخصبة، والثروة الحيوانية الكثيرة والمتنوعة، والورثة من البنين والبنات والنساء، ووفرة الماء والكلأ والعبيد والإماء والخدم...

وانسجاما مع هذه الصورة لا نكاد نلمس في سيرة إبراهيم التوراتية صورة النبي المكرم، باني الأمة عقيدة وحضارة، النبي القدوة للمؤمنين قاطبة، صاحب الرسالة الإيمانية السمحة، والقيم الأخلاقية الشاملة لجميع مناحي الحياة... بل صورة البطريرك المؤسس والأب الأول لبني إسرائيل، الذي كان اسمه أبرام "الأب المكرّم" ثم تحول إلى إبراهيم أبو "الجمهور/ الشعب" (تك17: 5). وهجراته التي لم ترصد بدقة تاريخية وجغرافية، لم تكن من أجل الدعوة إلى دين التوحيد، وتعزيز لحمة البشرية، وتحريرها من الأوهام والأحقاد والانحرافات... وإنما لجمع الثروة على حساب الشرف والقيمة، بما في ذلك شرفه وشرف زوجه سارة. (سفر التكوين 12: 13)، وأغلى ما سعى إليه هو الحصول على "الأرض الموعودة"؛ هذه الأرض التي استحقها بموجب العهد بينه وبين الله، وهو عهد مقايضة تغلب عليه الصبغة المادية؛ حيث يقدم فيه إبراهيم شيئًا من أجل الله، كالختان، وبناء المذبح، وتقديم الذبائح (سفر التكوين 07:12؛ 17: 13) ... مقابل أن يفعل الله شيئا لإبراهيم، كتكثير نسله، (سفر التكوين 17: 2-4) وإطالة عمره، (سفر التكوين 25: 8) وحفظ العهد والتفوق في عقبه، والإنعام عليه بالبركة التي تقاس بالمتاع المحسوس، "وَالرَّبُّ قَدْ بَارَكَ مَوْلاَيَ جِدًّا فَصَارَ عَظِيمًا، وَأَعْطَاهُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَفِضَّةً وَذَهَبًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَجِمَالًا وَحَمِيرًا." (سفر التكوين 24: 35).

هذا العهد الذي قطعه الرب لإبراهيم، وذريته من إسحاق ويعقوب الذي سيحمل اسم إسرائيل (تكوين 32: 29)، وفق سردية التوراة المؤلفة وسياقها التاريخي والحضاري الذي يعبر عن خصوصيات فترة السبي البابلي لليهود، أحدث معضلة مزمنة في التفكير الديني اليهودي، هي معضلة الشعور بالتفوق على باقي الأمم، تفوقا ماديا عنصريا وتفوقا دينيا معنويا، ومن ثم صارت هذه المعضلة بمثابة قانون التأليف والبيان والتأويل لنصوص العهد القديم وتفاسيرها.

والأثر الأكبر لهذا التأويل العنصري لعهد الله مع إبراهيم وذريته من إسحاق ويعقوب، سيتمثل في التأثير السلبي على فهم ما تضمنته سيرة إبراهيم من توحيد، وصلوات، وتضحيات، وغيرها من الوصايا التي التزم بها إبراهيم مع ربه توحيدا وتقربا ودعوة... حيث اتخذت من قبل اليهودية علامات على الاختيار أو الاصطفاء العنصري لبني إسرائيل، ووجوب تميزهم وتفوقهم على الأمم، فاليهودية بموجب العهد القديم وصايا خاصة باليهود دون غيرهم من باقي الأجناس الذين لم يستحقوا العهد والتكريم والتكليف، لذلك فهم لا يستحقون المساواة مع المختارين أصحاب العهد، سواء كان الأمميون من المؤمنين الموحدين، أم من باقي الشعوب المجاورة لبني إسرائيل (خر 19: 5، خر 20)، بل إن الحرمان من العهد، والطرد من الأرض، طال حتى ذرية إبراهيم من إسماعيل ابنه البكر. (سفر التكوين 17: 19-21؛ 21: 10) فنسل إبراهيم من إسحاق ويعقوب هم المصطفون المستحقون وحدهم للعهد والأرض، بينما حرم إسماعيل، وفي محاولات تبرير حرمانه غالبا ما يتم تشويه سيرته، لأن العهد كمال وعدم استحقاقه نقص حسب التفكير التوراتي والتلمودي وكذا التفكير الديني المعاصر.

والنتيجة الدينية التاريخية، أن هذا التأويل فضلا عن كونه يعزز التعالي على الشعوب المجاورة، ويمنع التواصل الطبيعي بين بني آدم، (سفر التكوين 24: 3) فإنه يشرّع لشعب الله المختار استباحة حقوقهم المادية والمعنوية، لأنهم من الأغيار المحرومين من العهد والمبعدين من النعمة، الذين يطردون من أرضهم ليمكن منها شعب الله المختار (سفر أخبار الأيام الثاني 20: 7).

خلاصة ما تقدم، إن إبراهيم في اليهودية شخصية تفتقر إلى أية قيمة أخلاقية أو دلالة روحية[1]، بل هو تمثل ديني لقيم مادية يصعب الاستناد عليها أو اعتمادها مرجعية لتحقيق أي ارتقاء بالعلاقات بين المختلفين، أو الأغيار بالتعبير التلمودي؛ نقصد بهذا على الأقل اللقاء

1- عبد المجيد الصغير، القيم الإبراهيمية ونهاية التاريخ، دار الأمان للنشر والتوزيع- الرباط، 2022م. ص 46.

المسيحي الإسلامي اليهودي، دون اعتبار باقي الجماعات التي تصنف نفسها إبراهيمية؛ كالبهائية واليزيدية والدرزية والسامرية... فإبراهيم في التوراة رجل دأبه الاستيلاء على أراضي الغير[1]، وتسييج ملكيتها، وحمايتها من القريب والبعيد، وفي علاقته بالشعوب المجاورة نجده حريصا على إبعادهم وإضعاف الروابط الاجتماعية معهم، بمن فيهم الكنعانيون الذين رحبوا به وعاش في أكنافهم، كما أن مبادئه وقيمه التي وردت في التوراة، أحيطت بتأويلات عنصرية تمنع اللقاء على أرضية عقدية وقيمية وتاريخية مشتركة، وبالتالي يبقى انعكاسا لصورة اليهودي المادي العدواني الشكاك، الذي يؤثر العزلة ويسعى للاستئثار بكل شيء، إن تصورا مثل هذا لا يمكن أن يحقق الإبراهيمية الجامعة، بل هي إبراهيمية الهيمنة، والأخذ دون البذل والتضحية، والعداء لا التقارب والحوار، إن إبراهيم في اليهودية يحتاج إلى تحرير ديني وتاريخي، وهذه مهمة الكلام المعاصر حول نبوة إبراهيم.

2. إبراهيم في المسيحية، تأسيس عقيدة الفداء:

لا يشك أحد في أن محور المسيحية في كل العصور هو يسوع، وباقي الشخصيات الدينية التي تبجل مثل الروح القدس والعذراء والرسل والقديسين لم تبلغ قيمته، وفي الغالب يؤتى بها لتؤدي وظائف تعزز العقائد في يسوع وتدعم سردية المجامع الأولى وتسد ثغراتها، وحتى نفهم وضعية إبراهيم في المسيحية، نحتاج أن نركز على فكرتين أو عقيدتين مسيحيتين هما العهد والفداء[2]، ورصد تباين معناهما بين التأويلات اليهودية والمسيحية؛ إذ من المعلوم أن المسيحية الحالية هي نتاج تفاعل تاريخي بين النصوص والأخبار، وكتابات الآباء، وقرارات المجامع الكنسية، ومن بين النصوص المعتمدة في تبرير العقائد المسيحية نصوص ما يسمى في الأدبيات

1- المرجع السابق، ص 52.

2- الفداء: موت المسيح "مصلوبا" كان كفارة لخطيئة آدم التي انتقلت إلى أبنائه بالوراثة. ويوضح الكتاب معنى الفداء بقوله: "عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآباء، بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ خَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ" (1بط1: 18-19).

المسيحية بالعهد القديم، الذي يحظى بتقدير جل الطوائف المسيحية خاصة الأسفار الخمسة (التوراة) التي يجمع المسيحيون على مرجعيتها؛ وبناء على هذه المرجعية فهم يقبلون ما يقدمه سفر التكوين من أخبار ووصايا حول إبراهيم، لكنهم يتأولونها تأويلا مسيحانيا، يتجاوز التأويلات اليهودية أو يجمدها تاريخيا إن شئنا التدقيق.

فأحداث السيرة الإبراهيمية لا تقرأ مسيحيا في معانيها الحرفية المادية، وباستثناء بعض طوائف البروتستانتية، فإن باقي الطوائف تقدم سياق أو جدلية الخطيئة والتوبة على جدلية العهد والأرض، وتأويلها لقصص العهد القديم يسلك نزوعا روحيا وأخلاقيا أمميا لا يخدم العنصرية اليهودية وسعيها للسيطرة والتوسع[1]، لهذا نجد أن فكرة العهد الإلهي مع إبراهيم وذريته، تحنط تاريخيا بمعناها العرقي ويصدق عليها لفظ العهد القديم الذي انتهى، بينما يستمر حضورها بصورة مغايرة أو جديدة في المسيحية البولْسية، جاء في رسالة بولس للعبرانيين: "لأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ لاَئِمًا: «هُوَ ذَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، حِينَ أُكَمِّلُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْدًا جَدِيدًا." (عب 8: 8). فالعهد صار مسيحيا، ووارثه الأبدي هو المسيح وأتباعه، وليس بني إسرائيل، ولمزيد من التأكيد على وراثة المسيحية للعهد الإبراهيمي، يتم الاستدلال بالنسب البشري ليسوع الذي ينتهي إلى إسحاق ثم إبراهيم، جاء في العهد الجديد: "كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ: إِبْرَاهِيمُ وَلَدَ إِسْحَاقَ. وَإِسْحَاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ... ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح" (مت: 1:1-16).

هذا التأويل لا يستقل عن فلسفة المعتقد المسيحي والتبريرات اللاهوتية الداخلية، حيث نجد الأدبيات المسيحية - عدا البروتستانتية - تعلل وصف عهد إبراهيم والآباء من ذريته بأنه عهد قديم، بسبب قصوره عن تحقيق الخلاص من الخطايا، وفي مقدمتها الخلاص من الخطيئة

1- راجع الفصول التي كتبتها "إلن هوايت" عن إبراهيم في كتاب "الآباء والأنبياء"، ترجمة إسحاق فرج الله، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

الأصلية[1]، هذا الخلاص[2] الذي جاء به المسيح وصلب[3] لأجله، فكان ذلك بمثابة إعلان عن العهد الجديد، فقال لهم يسوع: "لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت 26 : 28)، ولأن المسيحية صارت أممية مع بولس، ولم تعد قاصرة على خراف بني إسرائيل الضالة (مت 15: 24)، فمن الطبيعي أن يكون المسيحيون ورثة هذا العهد حسب بولس نفسه "فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذا نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة" (غلاطية 3: 29).

والملاحظة التي لا ينبغي تجاهلها عند دراستنا لإبراهيم في العهد الجديد، هي: إن مصدر الكلام عن إبراهيم، واستمرار العهد في المسيح والمسيحية، هو رسائل بولس بالدرجة الأولى، ويمكن رصد هذا بقوة في مختلف رسائله خاصة الرسالة إلى العبرانيين، وهذا بدهي بسبب الخلفية اليهودية لبولس التي استصحبها في تعاليمه، وفهمه لقضايا اللاهوت.

هذا المنزع اللاهوتي الذي اتخذته المسيحية في تحولاتها البولسية، عزز الفصل بين النسب الإبراهيمي والعهد الإلهي، الأمر الذي عكس تاريخا من معاكسة الفكر الكاثوليكي والأرثوذوكسي للسردية اليهودية، انطلاقا من العهد الجديد ذاته الذي يؤكد على عدم الاتكال على النسب الإبراهيمي في كلام واضح من سياقه أنه موجه للعبرانيين، وأن مجرد النسب لا يوجب استحقاق العهد، بل إن له شروطا هي الالتزام بالوصايا، والابتعاد عن الخطايا[4]، نجد هذا بالنص في مناسبتين؛ جاء في متى، "فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته، قال لهم: «يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا

1- الخطيئة الأصلية: تعتقد الطوائف المسيحية بأن البشر يولدون بذنب موروث عن آدم.

2- الخلاص: بموت المسيح وقيامته فقد خلص البشر من الخطيئة والموت وجاء للبشر جميعا بإمكان الحياة الأبدية. "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو 3: 16).

3- صلب: "صلب" المسيح وقام من قبره بعد 3 أيام ورفع بعد 40 يوما.

4- إلين هوايت، مشتهى الأجيال، ص 87.

تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم. (مت3: 7-9). وتكرر نفس المعنى في (لوقا 3: 8). وهو نفس المعنى الذي ترسخه الكتابات المسيحية حول اليهود واليهودية في كل العصور، ويمكن مراجعة كتاب "مشتهى الأجيال" في نسخته السبتية البروتستانتية للمتنبئة "هيلين وايت أو النسخة الأرثوذوكسية للأب بيشوي (مكرم إسكندر نقولا).

ولم تنازع المسيحية اليهودية في فكرة العهد فقط، بل أخذت معها فكرة التضحية والفداء، فكما قبل إسحاق التضحية وكان كبش فداء له حسب الرواية التوراتية، كانت تضحية المسيح وصلبه من أجل خطايا البشرية، جاء في رسالة يعقوب "ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال، إذ قدم إسحاق ابنه على المذبح؟ (يع 2: 21-23). بل إن المسيحة تدعي أن إبراهيم وهو يقدم ابنه، اطلع على فداء المسيح وفرح به، وهذا منقول عن المسيح في حوار له مع اليهود قال لهم فيه: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي، فرأى وفرح" (يو8: 56) وعندما استغربوا قوله قال لهم: "الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو8: 58).

خلاصة القول: إن المسيحية تملك تأويلاتها الدينية لإبراهيم، وتدعي امتلاك عهدها الجديد الذي نسخ العهد القديم، وتحكي نسختها من الفداء الذي يتجاوز فداء إسحاق في صورته ونتائجه، إلى فداء المكرزين من الخطيئة الأصلية. كما أنها ربطت أعمال الدين الحياتية والدينونة الأخروية بالمسيح، وقدمت رؤية لاهوتية تجعل يسوع هو الأصل، بينما إبراهيم وغيره من الآباء هم الفرع[1]، كما أن طوائف المسيحية الأرثوذوكسية والكاثوليكية ترى أن الانتساب لإبراهيم لا يعني أي استحقاق من غير صلاح، وهذا بدلالة العهد الجديد الذي يؤكد أن "كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار" (إنجيل متى 3: 10).

1- يرسخ الكتاب فكرة العهد والفداء المسيحيين من خلال تأويل كل أحداث سيرة إبراهيم وربطها بسيرة يسوع المسيحية.

3. إبراهيم عليه السلام في الإسلام:

يحضر إبراهيم عليه السلام في الإسلام ومصادره المرجعية بقوة، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، حيث توجد سورة باسم إبراهيم، وتكرر اسم إبراهيم في القرآن 69 مرة، لم يفُقه في ذلك سوى موسى عليه السلام، مع أن هذا التفوق الإحصائي لموسى عليه السلام لا يجعل مكانته فوق إبراهيم، حتى إن سورة إبراهيم ذكر فيها موسى أكثر من إبراهيم عليهما السلام. والتعليل الذي يمكن تقديمه هنا أن شريعته منسوخة بشريعة الإسلام، وما جاء به موسى من الوحدانية هو تأكيد لما جاء به إبراهيم، لأنه كان على نهجه وفي أثره. أما بخصوص مواقفه الكثيرة فأغلبها حجج على بني إسرائيل الذين حرفوا التوراة، وانحرفوا عن حقيقتها، ورفضوا شريعة الإسلام، بينما يحضر إبراهيم بقوة في العقيدة والشريعة، فهو إمام المسلمين الموحدين إلى يوم الدين، ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف:28]. وشريعة الحج، والأضحية، والصلاة الإبراهيمية، والختان... استمرار لشريعته، كما أن حضوره في القرآن المكي كان قويا بسبب عقيدة الوحدانية التي جاء بها وبقيت آثارها في الحجاز إلى زمن البعثة المحمدية، وكذلك بسبب مكانته في وجدان العرب، لأنه جد للإسماعيليين أبناء إسماعيل الذبيح حسب اعتقاد جمهور المسلمين، ومن ذريته محمد صلى الله عليه وسلم، وهو باني البيت العتيق في الحجاز أرض هجرته مع هاجر وإسماعيل، وليس بئر السبع كما في التوراة ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: 96 - 97].

وما يخبرنا به القرآن عن إبراهيم عليه السلام يمكن إجماله مراعاة لسياق هذا البحث في أنه كان نبيا رسولا، فهو قد حقق معنى الرسالة بشروطها، حيث تلقى الوحي من الله عز وجل في صحف تضمنت التشريعات الهادية له ولقومه وللناس جميعا في زمنه، دون قيود عرقية أو عنصرية ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة:124]، ومن أهم ما تضمنته هذه الصحف أن

الآخرة أبقى من الدنيا، ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ [الأعلى: 16 - 19].

ودعا أسرته وقومه للتوحيد، وكان راسخ الإيمان قدوة لهم ولمن يأتي بعدهم ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ [الممتحنة: 4]، وواجه صعوبات الدعوة بإيمان راسخ مكنه من تحمل المحن والصعاب، والصد، والتكذيب، والتحدي... وأيده الله بالحجج القاطعة والمعجزات الباهرة ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ [الأنعام: 83]. ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 258]. ونصره في سائر المواقف، واستطاع أن يؤسس أمة من المؤمنين الذين اتبعوه ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ [النحل:120]

ولعل أعظم فصل يقيمه القرآن عن إبراهيم، هو اعتقاده بعقيدة التوحيد، ورفضه الشرك بكل صوره ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: 120] فتوحيده كان خالصا لا تشوبه شائبة حلول، ولا شرك، ولا تجسيم، ولا تشبيه، ولا اختيار، سوى اصطفاء النبوة وتحمل مسؤولية الرسالة، وبراءته من معبودات أبيه وقومه يعزز ترفعه عن تقديس النسب المادي ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾، وفي هذا السياق رصد القرآن اختلاف اليهود والنصارى في ديانة إبراهيم، وحرص على تبرئته من الانتساب للمذاهب التي تشكلت على إثر نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، وهي اليهودية والمسيحية، حيث حسم بنصوص واضحة أنها كانت الإسلام الحنيف الخالص من مظاهر الشرك ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [آل عمران: 65]، وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران: 67].

وفي الوقت الذي أشار فيه القرآن الكريم إلى اصطفاء إبراهيم وآل بيته جميعا دون تقييد بنسل إسحاق، ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: 33]. ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: 84 - 86]. ودون إشارة إلى العهد بمعناه الذي تبناه العهد القديم، لأن العهد في القرآن يعني الالتزام بأوامر الشريعة واجتناب نواهيها، بل إنه أكد على أن وراثة ملة إبراهيم ليست بالنسب والادعاء، وإنما بالإيمان واتباع تعاليمه ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: 68]. وهو الاتباع الذي أُمر به محمد صلى عليه وسلم وأَمر به المسلمين ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: 123]. ﴿**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران: 95].

خلاصة القول: إن إبراهيم في القرآن الكريم هو نبي أممي، واستمرار لدعوة للوحدانية التي جاء بها من سبقه وألزم بها من جاء بعده، وارتباطه مع المؤمنين لا تشوبه عنصرية ولا عرقية، وهو عنوان الأبوة للمؤمنين والبراءة من المشركين، وإيثار الآخرة على الدنيا، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات، وإكرام الضيف، ومواجهة الظلم، وإقامة العدل، والشكر لأنعم الله، والتضحية بالغالي والنفيس لمرضاته، والإحسان في الظاهر والباطن ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**﴾ [النساء: 125]. وبهذا المعنى يملك الإسلام تمثلا خاصا لإبراهيم وقيمه الدينية، لكنه ليس تمثلا إقصائيا يستأثر به عنصريا، مع أن عددا كبيرا من المسلمين هم من نسل إبراهيم، سواء من إسماعيل أو إسحاق، كما أن الإسلام لم يتخذ من الصلة بإبراهيم ذريعة للاستحواذ على الأرض المقدسة، فالأرض لأصحابها ورثوها أبا عن جد.

المبحث الثالث: الإبراهيمية رؤية نقدية:

إن الفرضيات الطوباوية التي تقدمها الإبراهيمية بمختلف معانيها وتحولاتها، تعاني من جملة من المجازفات المعرفية والتاريخية والدينية، لعل أبرزها:

1. مصادرة الهوية الإبراهيمية للأديان:

يعلمنا درس مقارنة الأديان أن العبرة في المصطلحات الدينية بالمسميات لا بالأسماء، وبالتالي فإن وجود اسم إبراهيم في الكتب والأدبيات الدينية لا يدل على الهوية الإبراهيمية للأديان بالمعنى الدقيق تاريخيا ودينيا، مهما كانت الطموحات والنوايا التي تسعى للاستفادة من شخصية إبراهيم في تحقيق السلام والوئام بين الأديان، لأنه لم يصح عقلا وواقعا ملموسا، أن تجاهل الخلاف يحقق الاتفاق، وإنما الذي يحقق ذلك هو التعارف والإحاطة بمعتقدات الآخر والحوار معه، وبالعودة لجدلية الاسم والمسمى نجد أن الاسم ورسمه واحد، سواء كان إبراهيم أو إبْرَاهَامَ كما في قراءة هشام عن ابن عامر، بينما التفاصيل العقدية والتشريعية والأخلاقية للأديان مختلفة، وفي مواطن كثيرة هي متناقضة، وبينها خلافات جوهرية لا مجال لنفيها أو تجاهلها، خاصة فيما يتعلق بالعهد والأرض والتوحيد والتشريع والعبادة... واكتشاف هذا التناقض ليست مسألة معقدة، بل هي ظاهرة للعيان، يقر بها حتى المتحمسون للإبراهيمية والحوار الإبراهيمي، مثل "بروس فيلر" الذي اعترف بالتناقض الحاصل في صورة إبراهيم بين الملل الثلاث، مع أنه عاد ليجزم بمشترك واحد هو التوحيد[1]، لكنه زعم لا تدعمه سوى القراءة السطحية المنتصرة للعهد القديم، فبروس في كتابه لم يراجع أيا من كتب العقيدة الإسلامية، وخبرته بالقرآن سماعية، لهذا يمكن رد كلامه بكل اطمئنان. وبناء على هذه الخلاصة وما قدمناه سابقا من تعليل، فالحديث عن الإبراهيمية باعتبارها هوية مشتركة للأديان، ونعت الإسلام والمسيحية واليهودية بأنها أديان

1- بروس فيلر، الخليل إبراهيم، رحلة إلى قلب الديانات الثلاث، ترجمة نشأت باخوم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016م. ص 41.

إبراهيمية، هو خطأ تاريخي[1] ومعرفي، ومتاهة مستقبلية تزيد الراغبين في الحوار ضلالا عن اتباع الطريق الأسلم لحل المشكلات.

2. توحيد إبراهيم:

الوحدانية عقيدة إبراهيم لا شك في ذلك مطلقا، وهو بالمناسبة ليس أول الموحدين كما تزعم القراءة الأنتروبولوجية المتهودة، التي رسخت في التفكير اللاهوتي والفلسفي الديني أن التوحيد هو عهد إبراهيم الذي بدأ به، وإنما سبقه أنبياء وأمم من قبله، لكن الإقرار بالتوحيد لا يكون بصرف النظر عن تناقض تفاصيله في الكتب المقدسة، فالتوحيد اليهودي رغم تحولاته التاريخية بقي أقرب للتفريد الذي يعني وجود إله لبني إسرائيل مع آلهة للأمم الأخرى. وطغت عليه نزعة التجسيم، والاستئثار العنصري بالعلاقة مع الإله رب بني إسرائيل شعب الله المختار، والتوحيد المسيحي عبارة عن ثلاثة أقانيم بغض النظر عن تفاصيلها اللاهوتية، فهي مرفوضة من اليهودية والإسلام رفضا قاطعا، والوحدانية في الإسلام هي اعتقاد بإله أزلي للعالمين خلق الخلق وكلفهم وسيحاسبهم في يوم الدين حسابا عادلا.

3. شخصية إبراهيم

أما بخصوص تقييم شخصية إبراهيم، فرغم الاتفاق على أنه كان رجلا مكرما، إلا أن حقيقته في اليهودية لا تتعدى كونه مؤسس عشيرة منغلقة بدون هاجريين أو إسماعيليين، وتأهيلها للسطو على الأرض الموعودة، مع وجود عيوب أخلاقية لا تليق بنبي مقرب عقلا وحسا وذوقا، بينما مؤسس الأمة هو موسى، في حين تأسست الدولة مع داود وسليمان. والنبوة الحقيقية هي لموسى كما يؤكد موسى ابن ميمون في قوله: "إذا أطلق اسم النبي فإنما يراد به على وجه الحقيقة

1 -See: Hughes, Aaron W. Abrahamic religions: On the uses and abuses of history. Oxford University Press, 2012.p 118–140.

موسى"[1] لأنه وحده من أعلن الله له اسم يهوه (خر6: 3. تث34: 10). وفي المسيحية لا يتعدى كونه أبا روحيا للمسيحية، لأن الاعتقاد بالمسيح لم يرد في شريعة إبراهيم وموسى المكتوبة، وإنما هو من آثار السبي البابلي، بينما في الإسلام هو نبي من أولي العزم، تلقى الوحي وهاجر في العالم المعروف لتبليغ دعوته، وما جاء به في باب الوحدانية والأخلاق هو نفس ما جاء به الأنبياء من قبله ومن بعده...

4. الشريعة الإبراهيمية:

وبعض التشريعات الدينية ترجع في أصولها لإبراهيم، كالطهارة والصلاة والزكاة والحج والختان، لكنها نسخت بشريعة موسى وتأويلات الحاخامات وكتابات الآباء المسيحيين من بولس إلى المجامع التي صاغت الأسرار في صورتها الحالية، وهي بالنسبة للكاثوليك والأرثوذوكس التعميد، والميرون (التثبيت)، والتناول، والاعتراف، ومسحة المرضى، وسر الزواج والكهنوت، بينما لا يعترف البروتستانت سوى بسرين فقط هما: التعميد والتناول[2]. وهي كلها طقوس لا تعرفها اليهودية ولا الإسلام، وكذلك الإسلام فهو الشريعة الخاتمة التي نسخت كل من سبقها ولا تقبل من الدين إلا ما أقره الإسلام، أما التشريعات الكتابية التي لا تعارض ولا توافق شريعة الإسلام فهي أصل مختلف فيه ولا يوجد إلا عند بعض المذاهب، وهو حاليا في حكم المنقرض، لأن هذه الشريعة أهملت من قبل أصحابها فكيف يأخذ بها المسلم وأنى له أن يدرك شرط العمل بها عند المجيزين وهو التأكد من صحتها.

5. القيم الإبراهيمية:

1- موسى ابن ميمون القرطبي، دلالة الحائرين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر- 2007م، ص 398.

2- حبيب جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، مكتبة المحبة - القاهرة.

يقدم دعاة الإبراهيمية فرضية غير واقعية مفادها أن المزج بين الأديان يمكن أن يشكل منظومة أخلاقية مشتركة، لأن جميع الشرائع والمعتقدات والأنظمة الأخلاقية للأديان فيها خير، وهذا الكلام مخالف للواقع، وتدخل سافر في خصوصيات الأديان وحقها في الوجود الطبيعي دون العبث بخصوصياتها خدمة لمشاريع سياسية قد تؤدي إلى نتائج عكسية، ولسنا هنا بمعرض اتهام دين على آخر حتى لا نحيد عن حدود الموضوعية، لكن واقعيا وتاريخيا هي كذلك، فبعض التشريعات فيها حرمان وبعضها فيه إنصاف.

ومما لا شك فيه أن القيم الإبراهيمية سامية، لأنها قيم النبوة والرسالة، فلا اعتراض على قوة إيمان إبراهيم، ولا على رحمته، وكرمه، وإحسانه وبره؛ لكن هذا كلام عام وتعميمي، لا يرفع الواقع الذي يبشر بقيم علمانية مادية، أو شعارات من غير مضمون، بينما الأديان لها منظومتها القيمية التي تحرص عليها تدينا، وتربي عليها أبناءها، فضلا عن كون بعضها مناقض لروح الدين، مثل القيم التي تحرم الإبن البكر وذريته من العهد وتنفيه للصحراء، ومثل القيم التي تصور الآخر الإسماعيلي والكنعاني مثل الحيوان، أو القيم التي تسخر الشرف للمكاسب المالية ... في مقابل قيم العالمية والمشاركة في مكاسب الحضارة المادية والعلمية والثقافية، وإكرام الضيف، والعطف على القريب والغريب ... وغيرها من القيم التي جاء بها الإسلام ورسخها في تجربته التاريخية.

6. العهد الإبراهيمي:

تحدثنا عن العهد في الملل الثلاث، لكن هنا سنتحدث عن الدور الوظيفي للعهد في مبادرات التسوية، سواء في صفقة القرن أو غيرها، فالمبادرات الغربية ذات الصبغة السياسية، تتخذ من عهد إبراهيم مظلة لتثبيت احتلال الأرض وضمان ما يسمى بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، انطلاقا من الكتاب المقدس الذي يشكل جزءا صلبا من الرؤية السياسية الغربية للحل في فلسطين، فالمبادرات التي تنشأ في أوساط غربية، وبصفة خاصة البروتستانتية والإنجيلية المعاصرة، تقدم الوفاء للمشروع الصهيوني على الحق الفلسطيني، وتتصرف على

أساس أن الاحتلال حكم ديني وقدر تاريخي ونبوءة أخروية، وأن ما يترتب عن ذلك من ظلم وغيّ هي استحقاقات طبيعية، وعلى رأسها اغتصاب الأرض وتهويدها، وتوسيع المستوطنات، ودعم سرقات المستوطنين واعتداءاتهم اليومية...، ولأن الإنجيلية هي التي تمسك زمام مشروع الإبراهيمية ثقافيا وسياسيا، فإن أصحاب الأرض التي انتزعت منهم بقوة السلاح والنار والإبادة والتهجير، هم المذنبون مادامت التوراة قررت ذلك، ومادام العهد منح الأرض لليهود.

7. العلاقة مع الأديان:

مسألة النظر للأديان مسألة بالغة الأهمية، وهنا نقف على مفارقة متناقضة، فالنظرة اليهودية للأديان قائمة على التمركز على الذات ونفي الغير، لهذا لا تستطيع اليهودية الاعتراف بالإسلام بسبب أفكار كتابية مدمرة للعلاقة بالآخر، كفكرة العهد والاختيار والأرض الموعودة... وبالتالي فاليهودية هي المستفيد الأكبر ولعله الأوحد من الإبراهيمية؛ لأنها تأخذ ولا تعطي، تأخذ الأرض والمسار والعهد ولا تعترف بالمسيحية والإسلام.

والمسيحية رغم أنها تبشيرية، إلا أن تصورها للعلاقة بالآخر المسلم مرتبك، ويعاني من ثقل تاريخ حافل من الانغلاق وعدم التسامح، والارتهان لثنائية الحق والهرطقة؛ أي الحق الذي يمليه إيمان الكنيسة، والهرطقة التي تطلق على كل عقيدة تخالف إيمان الكنيسة، مع الاعتراف بأن لدى المسيحية خزانا من النصوص التي تدعم قبول الآخر وخزانا وتجربة من النصوص التي ترفضه وتضطهده[1]. وحتى قرارات مجمع الفاتيكان الثاني لم تفلح في رفع هذه الحالة رغم التغييرات النوعية التي لا يمكن إنكارها؛ أما البروتستانتية فهي تملك تصورا قاتما للعلاقة بالآخر، ولا يمكنها اللقاء إلا من أجل إسقاط التصورات الإنجيلية العقدية (الولادة الثانية) والأخروية (عودة المسيح)...، فالنبوءات اليهودية واليمينية الإنجيلية تعاكس فكرة السلام الإبراهيمي بالملحمة الكبرى (هرمجدون).

1- جوزيف لوكلير، تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2009م، ص 61.

بينما يرى الإسلام أن إبراهيم تاريخيا وعقديا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، وأن عهد إبراهيم ليس سوى التصديق بالوحدانية والالتزام بالشريعة ومكارم الأخلاق، ومن نتائجها أن الاختلاف سنة إلهية في الخلق، وأن تدبيره يكون في التعارف الحق والتعاون على الخير، وهذا ما تشهد به تجربته الحضارية، فالمراكز الحضارية الإسلامية احتضنت الملل الكتابة حضاريا من خلال عقد اجتماعي يضمن الحقوق للجميع، ويمنع منعا قاطعا انتهاك أي حق من حقوق الآخرين المادية والمعنوية، لأن الإسلام هو الوحيد الذي يعترف بسائر الأنبياء والرسل ويكرمهم وأتباعهم، ويقف على المشترك الذي يجمعهم في العقيدة والأخلاق، ويدعو الجميع إلى القيم الإبراهيمية الحقة، على قاعدة التصديق والهيمنة وتمام مكارم الأخلاق، وإليه يرجع الفضل في دعوة الأديان للتعارف والحوار، وترسيخ الإقناعية والاستدلال، وبناء على كل ما تقدم نقول إن إبراهيم كان حنيفا مسلما، وأن مشروع الإسلام للحوار والتعارف والتحالف ينبغي أن يأخذ طريقه بعيدا عن التجارب العنصرية والتجارب المتحيزة لها، وأن يرفع المسلمون صوتهم عاليا بمشروعهم ويتوجهوا به للعالمين رحمة ودعوة.

خاتمة:

إن تحرير مسألة الإبراهيمية في سياق الكلام المعاصر، لا يقتصر على معطيات علم العقيدة وأصولها من الكتاب والسنة، فهذا أمر تقرر في باب النبوات عبر أجيال ومدارس علمية وعقدية، بينما هو اليوم متضمن بالضرورة لمعطيات علم الأديان المقارن؛ وعلى رأسها نصوص الكتاب المقدس، وسرديات الملل والمذاهب، ثم تاريخ الأمم والشعوب، وتحولات المفاهيم الثقافية دينيا وإيديولوجيا، وتصورات القادة السياسيين والدينيين لمستقبل شعوبهم وأوطانهم...، وقد حاولت هذه الورقة الإحاطة بهذا الموضوع بما يناسب الحيز المتاح، وخلصت إلى أن الإبراهيمية مصطلح حادث متحول، فيه من التمويه والخداع الديني والتاريخي والقيمي أكثر مما فيه من الصدق والمصداقية والرغبة في الحوار والسلام، وفضلا عن التشكيك في غايات نحته، وإبهام دلالته، وتمحل وعوده الحضارية، فإن تسويقه ثقافيا وسياسيا لا يساعد أبدا في

تطوير العلاقة بين أتباع الأديان، بل إنه يعزز الحيف والظلم والعنصرية بين الشعوب والحضارات، ويثير مزيدا من الريبة الدينية وسوء الفهم لحقيقة الأديان وقيمها العقدية والأخلاقية، تصورا وتمثلا. وبالتالي يمكن القول: إن إبراهيم غير متطابق في الأديان كما توضح من خلال النصوص، وإن الإبراهيمية فكرة محدثة تشوش على الحوار ولا تتقدم به نحو أفق التعارف والتعاون.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
- الكتاب المقدس، نسخة فان دايك - البستاني الجديدة، وبهامشها تفسير الكتاب المقدس، جون ماك آرثر، ط2، دار منهل الحياة، لبنان، 2012م.
- إلين هوايت "الآباء والأنبياء"، ترجمة إسحاق فرج الله، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، بيروت لبنان.
- إلين هوايت، مشتهى الأجيال، ترجمة دار الشرق الأوسط، المطبعة الكاثوليكية، 1964م.
- جوزيف لوكلير، تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2009م.
- حبيب جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ط6، مكتبة المحبة – القاهرة، 1977م.
- الخليل إبراهيم، رحلة إلى قلب الديانات الثلاث، بروس فيلر، ترجمة نشأت باخوم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016م.
- عبد المجيد الصغير، القيم الإبراهيمية ونهاية التاريخ، دار الأمان للنشر والتوزيع- الرباط، 2022م.
- موسى ابن ميمون القرطبي، دلالة الحائرين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر- 2007م.
- Abrahamic faiths crack the door to deeper dialogue, By Jane Lampman June 19, 2003.

- AL-Faruqi, Ismail Raji. Trialogue of the Abrahamic faiths. International Institute of Islamic Thought (IIIT), 1995.(Foreword)
- Daniel E. Campbell, David M. Scienceman, Elliott T. Campbell The United States of Abraham: A Path toward Peace in the Middle East .Emergy Synthesis 8, Proceedings of the 8th Biennial Emergy Conference (2015)
- Hughes, Aaron W. Abrahamic religions: On the uses and abuses of history. Oxford University Press, 2012.p 118–140.
- Kuschel, Karl-Josef. "Abraham: sign of hope for Jews, Christians, and Muslims.(1995) ".
- Kuschel, Karl-Josef. Towards an Abrahamic ecumene of Jews, Christians, and Muslims: interfaith dialogue in the age of globalization. Ergon-Verlag, 2002 .
- Mayeres, Agathe. "Massignon face au sionisme." Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem ,20 .(2009). https://journals.openedition.org/bcrfj/6248
- Monnot, Guy. P. Rocalve. Louis Massignon et l'Islam. Place et rôle de l'islamologie dans la vie et l'oeuvre de Louis Massignon. Revue de l'histoire des religions, 1995.
- Rita Faraj, father michel hayek and studies of islam: In Search of Ishmael's Secret, Ökumenisches Forum, Jahrgang (2020), Universitätsbibliothek Graz, 2020.
- https://hwpi.harvard.edu/

- https://interfaithatlanta.org
- https://www.brucefeiler.com/books-articles/where-god-was-born/interview/
- https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_const_19641121_lumen-gentium_ar.html
- https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_ar.html
- https://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_ar.html.